والـذّكـاء.. لمـاذا تبكـي يـا حبيبـي؟!!.. المـدرسـة جميلـة.. وتعطي شيكولاته ونلعب فيها بالكرة..» وقبل أن ينهي كلامه كان قد أخرج يده الأخرى من جيب سترته، ومدّ أصابعه لي بقطعة شيكولاته في غلاف أحمر لامع جميل.. توقّفت عن البكاء بعد أن شدّني اللّون الأحمر اللاّمع.. تردّدت أوّل الأمر في مدّ يدي إليها.. لكن مع التّشجيع المتواصل والحاني من الأستاذ مددت يدي إليها وأخذتها منه.. لم أشأ أن أفضّ غلافها في الحال، فكّرت في الاحتفاظ بها؛ حتّى أعود بها إلى أمّي وأبي وأختي الصّغيرة رغدة. فكّرت في الزّعم بأنّني شاطر، وأنّ الأستاذ أعطاني هذه الشّيكولاته مكافأة.. قبل أن أستمرّ في التّفكير في بقية القصّة الّتي أدعيها، اصطحبني الأستاذ، ومعي بقية الأولاد الجدد، بعيداً عن المكان الّذي يقف فيه طابور الكبار والأستاذ فرغلي، وذهبنا إلى آخر السّاحة.. جعل يخرج من جيوبه العديد من قطع الشّيكولاته ويعطيها لمن يخبر باسمه وبعدد إخوته، وأخذ يسألنا بودّ وعطف عن أشياء بسيطة وسهلة.. وأعطاني قطعاً جديدة من الشّيكولاته وقرّرتُ أن أقسمها بيني وبين ماما وبابا وأختي رغدة، الّتي تحبّ الشّيكولاته أكثر مني. ولم يكتف الأستاذ بهذا، بل أخرج لنا من جيبه أيضاً الكثير من البالونات الملوّنة، أخذ ينفخها، ويربط فوهتها، ويطلقها لنا في الهواء طالباً منا الرّكضَ خلفها والإمساك بها.. أخذنا نتسابق خلفها متنافسين بجديّة كرجال كبار. وراقني جداً وجهُ المعلّم الباسم عندما راح يقهقه من كلّ قلبه، وتذكّرت أبي حينما يلاعبني في البيت.. أحسستُ بحبّ جارف لهذا الأستاذ، بقدر كراهيتي وخوفي من الأستاذ فرغلي.. بدأت أقترب منه أكثر وأكثر، وأدفع إليه بالبالونة بمرح، فيردّها إليّ..

في نهاية اليوم الدّراسي الأوّل، كنت قد قرّرتُ أن أواصل مجيئي إلى المدرسة: «لن أتخلّف عنها يوماً واحداً.. سأستيقظ مبكراً.. سأصحو قبل أن يصحو أخي فهمي.. سآتي قبله إلى هنا كي ألعب مع أستاذي هذا».. اقتربتُ منه أكثر، فنظر إليّ بفيض من سعادة تراق من عينيه على وجنتيه، وسألني بحنان بعد أن عرف اسمي: «ما رأيك يا وليد، هل المدرسة جميلة؟ وهل ستأتي كلّ يوم؟».

أجبته بعزم وصدق وأنا أتعلّق بأصابعه كأبي: «بالطبع يا أستاذ.. لكن ما اسم حضرتك، لكي أحكي لماما وبابا عنك؟..».

أجاب الأستاذ بحنانٍ غير عادي: «أنا الأستاذ فرغلي...».

الإمارات العربيّة

باب المراح

مصطفى الكيلاني

الحجارة المُكَدَّسَة هُناك حِذو آخر مَمَرٍّ إلى الذاكرة تَمْنَعُ الرؤية من الانتشار...

ـ هل نعود القهقرى؟

ريحُ ذَاكَ الخريف تكنس الأزقّة والسّطوحَ دون تَوَقُّف.. الأبواب العتبات النمل المُتَدَحْرِج قشورُ التّين الهنديّ رَوْثُ الأحمرة العرباتُ تَجُرُّهَا البغال أكداسُ الزيتون في حلم الشتاء المُنْقضي الأطفالُ يتصايحون قشورُ الرمّان الأزقّة سطوح المنازل المحاريث العتيقة البياض..

ـ كيف المرورُ إلى مَضْجَعِها؟

لَحْظَة الأمل تَصْعَد من النسيان ثمّ تختفي...

«باب المَرَاح» الرّحْبَةُ «القَصْر» الدكاكين بَرَاريدُ الشاي الممرّاتُ الملتوية إلى غابات الزيتون الأطفالُ الحُفَاة النساء يَحْملن «القِلال» والمَنازلُ البيضاءُ تَنْتَشِرُ على الرُّبى في أشكالٍ مُدَرَّجة تَتَوَسَّطُها المَئْذَنَة تَعْلُوهَا عتباتٌ قطنيّة كأنّها ظلالُ فراشات... ولادَاتٌ نُعُوشٌ تمرّ من «باب المراح» في كلّ يوم وجوهٌ تندفع كالسّيل إلى هناك القبورُ البياضُ الأعشابُ الطفيليّة جُثْمانٌ يُحْمَلُ ليُوضع في حفرة وآخر قريباً من يوم البارحة وتمْضي الأيّام اللّيالي الأعوام...

ـ كيف المرور إلى قبرها؟

تَمَّ ذلك في عام الجراد أو الجدب تَبَعاً لاختلاف الرّوايات.

تدافعوا في الأزقّة.. تعالت أصواتُهم وانتشَرَ خَبَرُ «المحلّة»(*)..

«أمّ الزين» في قاع الغرفة الغربيّة مُمَدَّدَة على حصير تصرخ، والقابلة تضع الماء السّاخن قريباً من العَتبة...

جحافل الجيش تتجمّع في السّهول المجاورَة.. النّساء يُغلقن الأبواب والنّوافذ.. طلقات بنادق وصهيل خيول...

في أعلى الرّبوة رجال على صهوات الجياد وآخرون على الأقدام يتجَمّعون.. مشهدٌ رَمَادِيّ يتّسع ويضيق والوجوهُ المذعورة في حركة متجمّدة.. الرّيح. صُراخ أمّ الزين.. في الغرفة «خَابية»(*) ضخمة تُغَطّيها قطعة قماش وحَجَرَةٌ ملساء عَليها إبريق صغير، وفي الحلق والأسفل لُطَخٌ من الزيت والغُبار...، وَحِذْوَها جِرَارٌ وأوانٍ للطبخ و«كوانين»(*) بأحجام مختلفة...

الوجه المذعور العرق البارد عيناها تنغلقان ثمّ تنفتحان صوب «الدكّانة»(*) في قاع الغرفة..

ـ هل يَجفّ الحلم وتموت الذكريات؟!

الغسّالةُ والكفنُ وعويلُ الأمّ وبكاءُ أخْتَيْها تعرض لحظاتٍ في خاطرها ثمّ تشتدّ آلامُها فتصرخ...

رأت في ليلة البارحة بُومَةً تُحَلِّق فَوْقَ غُرفةِ حُلمها وتقترب من جرَاءٍ هزيلة، تمزّقها الواحدَ تِلْوَ الآخر بمخالبَ طويلةٍ فيتناثر الدّم وفُتاتُ اللّحم كأنّهما طالعُ رَذاذٍ، ويُدَوّي نُباح الأُمّ قادِماً من آخر السّقيفة..

يمتزج النباح بما يُشبه العويلَ وتستيقظ مذعورة على طلقاتِ بندقيّة وعواءِ كلب يلفظ آخر الأنفاس..

يَوْمَ تَدَافعوا إليها امتزجت ظلالُ البنادق والسنابك والرؤوس بحَفيف الزيتون وارتعاشاتِ أَجْنِحَة الطيور المذعورة وأصواتِ الرّجال يتهيّؤون للمعركة..

القلعة «باب المراح» منصور الزغداني في مقدّمة الحشود المتراصّة يخطب وَبِيَدِه بندقيّةٌ والجيش في أسفل المقبرة..

«أمّ الزّين» تصرخ: يا «محمّد»! صَوْتُ المؤذّن فتيلُ الزّيت لسان الضوء يرتعش بُقَعُ دَمٍ على الحصير...

السُّبل إلى القرى المجاورة مُغْلَقة غَدَا ممرّات ضيّقة إلى غابات الزيتون.. الماء الدّافئ على عتبة الباب والغرفة تسبح في ضوء شاحب تمتدّ عيدانه من النّافذة إلى وسط الدّار. جَمَلٌ ودجاجات وخروف مُوثَق بِحَبْلٍ إلى شبّاك الغرفة المقابلة..

تمَلّكتها رغبةُ المستحيل منذ أن أبصرته لأوّل مرّة من سطح الغُرفة القِبْليّة في عشيّةِ صيفٍ يركب فرسَه.. وجه بَيْضاويّ مدوّر وحاجبان كثّان ولحية بين السّواد والشُّقْرة. وعينان ضيّقتان صارمتان... تملّكها رُعب الرّغبة وكادت... البندقيّة الخنجَرُ في غمْدِه المقبض واللّسان الرّقيق يلتوي ونمنماتُ حروفِ والله عيني لا تنام.. وجه منصور لا يفارقها لحظةَ الاستلقاء في الفراش استعداداً للنّوم... في الحلم تراه يهمّ بالنّظر إليها.. تناديه.. لا يَسْمعها.. تلاحقه بلهفة المتشهّيّة والفرسُ ريح هاربة والرّعدُ يقصف فيَهتزّ المكان ويفيض الماء على التراب والحيطانِ والعتبات ويلوذ الأطفال بأحضان أمّهاتهم وتشتهي الخروج إلى الزقاق غير أنّها تخشى العيون وغضبَ الرّجال فتلوذ بالغطاء ويمرّ طيف منصور كالصّاعقة.. تنْتظره في كلّ العَشايا من سطح الغرفة القبليّة، قد يعود من «باب المراح».. تغيّرُ مكانَ نشر الكسكسي أو الفلفل. تكنس مَوْضِعاً وسرعان ما تنتقل إلى موضع آخر.. تَوهم أمّهَا بأنّها تُنجز عديد الأشغال...

ـ «هل يمرّ قبل المَغْرب؟!».

غيمات شريدة تتراءى من النّافذة المطلّة على السّماء يدفعها القمر بعيداً عنه وتتعانق الظّلال في مشهد ليْليّ كأنّه مَوْكب رجالٍ يلبسون برانيس رماديّة ووجوههم المتفسّخة تُرَدّد بذُعرٍ نَبَأ خَرابٍ قادم.

تصرخ.

يوم أعلموا أباها بالخبر لم يكن في وسعها إلاّ الإذعان لإرادة الرّجال الواقفين داخل السقيفة، وما كان لأبيها إلاّ أن يُطأطئ رأسه ويطلق زفراتِ التوجُّع.. «هل يرفض قرار «العرش» ويَدَاه مغلولتان وشرفه كلمات مهموسة شامتة على شفاه «أولاد مبروك»؟

ليلَةَ حُلْم البومة رأت بين اليقظة والكابوس دَمَ العشيرة يُلطّخ جذوع زياتين هرمة تناستها الأعوام وعيوناً حمراءَ كالجمر وجثثَ أبناءِ الأعمام.. همّت بالعويل ولكنّها سرعان ما أذعنت لخَوْفِها القديم واستسلمت لكابوس البومة والجِراء الهزيلة ومِزَقِ اللَّحم والعظام المُتَنَاثِرة... وجه منصور لا يفارقها عيناه الصّارمتان أنفاسه يداه الغليظتان السّاختتان لحظات البهجة في «سانية» أبيه داخل «الفروشة»(*) بعيداً عن الأنظار. الرّيح الخريفيّة وحفيف الأوراق والسّحب تتراكم فتنقبض السّماء.

تصرخ: «يا محمّد!» دويّ المدفع طلقات بنادق وصهيل خيول «باب المراح» يعجّ بالفرسان والجنود الغُزَاة... الأبواب تُخْلَعُ الأغنام والأبقار والجِمَال تُقْتَلُ والجِرَارُ تُهشَّمُ والزيْت بِرَك صغيرة أمام المنازل الخَربة والنّساء والأطفال حفاة والرّجال على ظهر الجياد يلوذون بالحقول البعيدة والأسرى والجرحى والأمّ الحزينة تنوح قريباً من فتيل الزّيت و«باب المراح» مُظلم قَفْرٌ والغزاة في كلّ مكان وجثّة منصور على الفراش والعينان مفتّحتان والأمّ وحيدة في ظلام الغرفة...

«أمّ الزّين» مُمَدّدة على الحصير والقابلة فرّت هي الأُخرى مع النّساء المذعورَات. العالم ضيّق. أحسّت بأنّها في قَبْوٍ مُرْعِب وأجنحة الخفافيش الوهميّة تدقّ زجاج نافذتها وتحاصر زَمَنَها الأخير.. وتتكدّس الأجنحة تتدافع الرؤوس تهتزّ النّوافذ الأبواب ويتهشّم الزّجاج يَسيح الدّم حبالاً تلتوي حَوْل عُنقها والألسنةُ نيران باردة تمتصّ آخر اللّحظات...

تدحرجت في النّفق الطويل. زحفت. حملها الوجع الأخير إلى غيبوبة اللّيل القادم.. أطلقت أنيناً خافتاً وقبل أن تُغمض عينيْها في رحيل أبديّ سمعت من قاع موتِها المُجَوَّف صراخَ رضيع فأدركت بأمومتها الهالكة أنّ الحياة لا تتوقّفُ.

تونس

* * *

ثَبَت بالكلمات الدّارجة الواردة في القصّة:

ـ «باب المراح»، «الرّحبة»، «القصر»، أماكن بعينها في القلعة الصّغرى، مدينة ساحليّة تونسيّة، وهي مسقط رأس الكاتب.

ـ «المحلّة»، جيش باي تونس الّذي هاجم القلعة الصّغرى في أكتوبر ١٨٦٤ لرفضها تسليم الضّريبة (المَجْبَة)...

ـ «كوانين»، جمع «كانون»، يْشبه المِجْمَرَة، وهو من أواني الطّبخ..

ـ «خابية»، آنية لخزن الحبوب والزيت..

ـ «الدكّانة»، مَوْضِع للاستراحة والنّوم..

ـ«الفروشة»، كوخ يلتجئ إليه الفلاّح للنّوم في ليالي الحصاد خاصّة..